

الأنثروبولوجيا في العالم العربي

- حالتا مصر والجزائر -

د.الصديق ثياقة- جامعة تيارت- الجزائر

Abstract :

Although the appearance of anthropology science was in the western Europe (the colonizer) as its first environment , yet the third world (the colonized) was the best field to be applied in and through it to the islamic world as a result for clonization movement. The Arabs knew anthropology science early , as a result some Arabic universities assigned it as a module to be taught as an accademic science. EGYPT was the first to adopt this science in its universities thanks to bringing of teachers from the west mainly from England (Effanz Brichard, Radcliff Brown), Egypt also sent students to the west to be formed (Ahmed Abouzid, Elkhachab and Eldjouhari). In Algeria it was pierre Bordio who established departments and institutions of anthropology in universities. The difference between the two countries is that there were some anteropological studies under the french colonization while in Egypt was affiliated to England Schools.

Through this word, we are trying to show how the anthropology science was in the colonial period and even after independence in the Arabic world and also the different obstacles it met both in the past and present time .

المخلص :

لئن كان نشأة علم الأنثروبولوجيا في الغرب الأوربي المستعمر وترعرع في بيئته الأولى، فإن ميدانه المفضل كان المستعمر العالم الثالث ومنه العالم العربي الإسلامي، نتيجة للحركة الاستعمارية. وبذلك تعرف العرب على الأنثروبولوجيا مبكرا كغيرها من العلوم، ومنذ تلك اللحظة عرفت بعض الجامعات العربية تخصص الأنثروبولوجيا كعلم أكاديمي يدرّس في الجامعات، وكانت مصر السبّاقة في التعرف بهذا العلم في العالم العربي، وذلك بفضل استخدام جامعاتها لأساتذة من الغرب وبالأخص بريطانيا (إفانز بريتشارد، راد كليف براون)، وبعثاتها الطلابية أيضا ممن تكونوا في الجامعات الغربية (أحمد أبو زيد، الخشاب والجوهري). وفي الجزائر يبرر بورديو، فأسسوا معاهد وأقسام الأنثروبولوجيا بالجامعات. وإن كانت هناك اختلافات بين البلدين إذ خضعت الجزائر للمدرسة الفرنسية وكانت هناك دراسات أنثروبولوجية ميدانية أبان الفترة الاستعمارية، فإن مصر أتبعَت المدرسة البريطانية .

نحاول في هذه المداخلة عرض مسيرة للأنثروبولوجيا العربية البلاد العربية وخصوصا في جامعتي مصر والجزائر منذ فترة الاستعمار وحتى في فترات الاستقلال أي التأسيس الأكاديمي لها والتعثرات التي رافقتها خلال تلك المدة وحتى وقتنا الحالي.

مقدمة:

إن الحديث عن الأنثروبولوجيا في العالم العربي وتحديدًا في مصر والجزائر لا يعني بتاتا الحديث عن أنثروبولوجيا كعلم قائم بذاته واضح المعالم ومحدد الأهداف كما هو عليه الآن أو في حالة تأسيسه في مهده الأول الغرب وإن كانت ميادين الخصب الشرق الإسلامي أو البلاد المستعمرة ومنها العالم العربي، وحتى بعد نقله وزرعه زرعًا في البلاد العربية هذا العلم (الأنثروبولوجيا) لا يسير جنبًا إلى جنب وينظر إليه في البلاد العربي بنفس النظرة التي ينظر إليها لبقية العلوم الأخرى، خصوصًا العلوم التقنية سواء من طرف الوصاية أو القائمين عليه بل حتى متلقي خطابه، وبالتالي الحديث عن أنثروبولوجيا في البلاد العربية (مصر والجزائر)، وبعد أزيد من خمسة عقود من الاستقلال، هو في جوهره حديث عن أنثروبولوجيا ممكنة الوجود وليست موجودة بالفعل.

غير أن هذا القصور المعرفي في البلاد العربية لا يقتصر على الأنثروبولوجيا بل هو في كافة العلوم الاجتماعية، ولكن لا يعني من كلامنا هذا غياب كلي للأنثروبولوجيا في البلاد العربية- التي هي محل التركيز في هذه الدراسة-، أو هو يعيد حاليته المرضية من السوء إلى الأسوء، بل شهد انطلاقًا واستفاقة قصوى تضاهي انطلاقه في الغرب سيما وإن تأسيسه في الشرق كان في كثير من الأحيان من طرف آباءه الأوائل في الغرب (إفانز بريتشارد في مصر)، ونفس الشيء تقريبًا في الجزائر التي كانت حقًا لاختبار فرضياتهم ونظرياتهم ومن ثمة تحققت لهم شهرتهم ونجاحاتهم العلمية، ومن هنا في هذه الورقة البحثية نجد أنفسنا نعرض حالة تأريخ للأنثروبولوجيا قبل عرض حالتها البحثية والأكاديمية في هذين البلدين.

ومنه لا يمكن معالجة هنا حال الأنثروبولوجيا في البلاد العربية معالجة مستقيمة إذا عولجت بعيدة عن الظروف التاريخية التي تشكلت فيها كتلة المعارف الاجتماعية في المنطقة العربية، سيما وأن الأنثروبولوجيا كانت ولا زالت ملحقة بفروع وأقسام العلوم الاجتماعية وعليه لا يمكن تجاهل المرجعيات والجهود التاريخية للعلوم الاجتماعية كافة في المنطقة العربية. كما لا يمكن أيضًا معالجتها معالجة سليمة بعيدًا عن الظروف التاريخية التي كان يعيشها المجتمعين المصري والجزائري، فكلًا المجتمعين كانا خاضعًا لهيمنة القوى العالمية سواء في شكل

حماية أو استعمار، وحاجة تلك القوى المهيمنة كما للمجتمعات المهجن عليها كانت للأنثروبولوجيا أكثر من حاجتها لعلم الاجتماع الذي هو كذلك بدوره تعرف عليه العرب مبكرا، "إذ حين تأسس علم الاجتماع في مصر كان المجتمع المصري على عتبة التحولات، ولكنه لم يزل مجتمعا تقليديا، فلم يختبر التحولات الكبرى التي أفضت ظهور علم الاجتماع في أوروبا، فالإقطاع الزراعي هو النظام الاقتصادي السائد، ونظام الحكم ملكي وراثي وحركة التصنيع في مهدها ونظام التعليم محدود، ملائم لمحدودية فرص الحراك الاجتماعي"⁽¹⁾، ونفس الشيء ينطبق تقريبا على المجتمع الجزائري مع فرق في البنى السياسية، ومن هنا تكمن أهمية هذا الموضوع وشرعية المقارنة.

أولاً- الأنثروبولوجيا في مصر:

1- الوفود العلمية:

دخلت الأنثروبولوجيا إلى العالم العربي عن طريق اتصالها بالغرب وكانت مصر السباقة في التعرف بهذا العلم في العالم العربي، وذلك بفضل استخدام جامعاتها لأساتذة من الغرب وبالحصوص بريطانيا (إفانز بريشارد، رادكليف براون)، وبعثاتها الطلابية أيضا من تكونوا في الجامعات الغربية، فأسسوا معاهد وأقسام الأنثروبولوجيا بالجامعات المصرية فيما بعد.

ولئن وصلت الأنثروبولوجيا متأخرة إلى الثقافة العربية، إلا أنها وصلت بقوة. فقد كثرت الدراسات التي عرّفت بها، وتناولت قصة نشوئها في مهدها، الغرب الأوروبي والأمريكي، واشتغالاتها وتطوراتها وتحولاتها... ومع هذا لم تكن تلك الدراسات، في أية مرة، فائضة عن الحاجة، أو ينطبق عليها مبدأ "لزوم ما لا يلزم"، فحيث إنها تهتم أولاً وأخيراً بالإنسان، فهذا حقل شديد الاتساع والثراء، لا يفضي إلى نهاية تكون بمثابة خاتمة المطاف، ويدعو الباحثين والمهتمين، كضرورة، إلى مزيد من الدراسات والأبحاث التي تتناول الوجوه المختلفة والمتجددة للإنسان.

يرى ريتشارد أنطون في عرضه للدراسات الأنثروبولوجية في منطقة الشرق الأوسط حقيقة هامة عن البدايات الأولى للدراسات الأنثروبولوجية في مصر، ترجع لثلاثينات القرن الماضي. عندما استضافت الجامعة المصرية في الثلاثينيات بعض أساتذة الأنثروبولوجيا البريطانيين البارزين، وكانوا يلقون محاضراتهم على الطلاب بانتظام في تلك الجامعة (جامعة القاهرة الآن). ومن هؤلاء الأعلام: هوكارت Hocart وإيفانز بريتشارد Evans pritchard، وبريستيانى Peristiany. ولكن المفارقة أن أولئك الأساتذة كانوا يعدون أساتذة لعلم الاجتماع، ودرّسوا علم الاجتماع بالفعل لطلاب أقسام الجغرافيا، والفلسفة والاجتماع.

ويربط أنطون بين تلك النظرة وبين سيطرة المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع على القائمين على أمر تدريس العلوم الاجتماعية في مصر، وكان من شأن هذا الأسلوب من التفكير أن يركز الاهتمام على الفلسفة وعلى المشكلات الاجتماعية. وكان من الطبيعي ألا يشارك أتباع مدرسة دوركايم في مصر النظرة التقليدية البريطانية إلى الأنثروبولوجيا الاجتماعية كبؤرة الاهتمام الأول، وما من شك أن هذا الوضع قد أعاق انطلاق الدراسات الأنثروبولوجية المصرية من نواح متعددة. أي وجود أساتذة وتقاليد أنثروبولوجيا بريطانية وهيمنة فرنسية دوركايمة لغالبية هيئة التدريس، وربما يرجع إلى تمسك القائمين على تدريس علم الاجتماع بالمدرسة الفرنسية الدوركايمة مع وجود الانجليز - "يرجع إلى كون السوسيولوجيا الدوركايمة التي تشدد على التماسك الاجتماعي تتناسب أكثر والوضعية الاجتماعية لمصر العشرينيات التي كانت تعيش والغليان والاستقرار أدت إلى التخلص من الهيمنة العثمانية سنة 1922، هذا نظريا، أما تطبيقيا، وبالفعل فقد أنجزت سنة 1938 شرعت جمعية تدعى: "الجمعية العربية للدراسات الاجتماعية"، في تحقيقات ميدانية لظاهرة الفقر في مصر وقد جذّت تلك الجمعية لإنجاز هذا العمل الضخم عدد كبير من المحققين الاجتماعيين لاستجواب أكثر من ثلاثة آلاف عائلة"⁽²⁾.

ويسجل أنطون في دراسته المشار إليها أن رادكليف براون كان أول أستاذ بريطاني يفد إلى مصر أستاذاً للأنثروبولوجيا، وكان ذلك في عام 1947 عندما استقدمته جامعة

الإسكندرية لينشئ معهد العلوم الاجتماعية التابع لكلية الآداب بها، وكان يشغل في ذلك الوقت، وانسجاماً مع التقاليد الأكاديمية المصرية، كرسي علم الاجتماع بجامعة الإسكندرية⁽³⁾.

ولكن الدراسات الأنثروبولوجية حققت في الإسكندرية، وبفضل براون دفعة قوية لها، من خلال دخولها كتخصص دراسي من ناحية، وكفرع من فروع معهد العلوم الاجتماعية المذكور. وكان من أنجب تلاميذ مدرسة الإسكندرية في الأنثروبولوجيا الدكتور أحمد أبوزيد، وهو نفسه الذي شغل أول كرسي للأنثروبولوجيا أنشئ في مصر عام 1970.

2- التأسيس الأكاديمي:

بدأت الدراسات الأنثروبولوجية في مصر على المستوى الأكاديمي في عقد السبعينات، حيث تعددت كراسي الأنثروبولوجيا وتخصصات الرسائل والبحوث الأنثروبولوجية، وكثر عدد الحاصلين على درجات الماجستير والدكتوراه في الأنثروبولوجيا، وأنشئ كرسي للأنثروبولوجيا بجامعة القاهرة، الذي شغله المرحوم الدكتور أحمد الخشاب، وأنشئ قسم للأنثروبولوجيا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية، وكلية الآداب جامعة الإسكندرية. ولن يتسع هذا المجال المحدود لتسجيل كافة الانتصارات الأنثروبولوجية على الصعيد الأكاديمي، وحسباً أن نسجل الاتجاه العام لحركة هذا العلم.

وانطلقت الدراسات الأنثروبولوجية بجامعة القاهرة من خلال عودة الدكتور أحمد الخشاب من جامعة لندن بعد حصوله على درجة الدكتوراه (1953)، وبذلك دخلت معه التقاليد البريطانية في الأنثروبولوجيا، وفي منتصف الستينيات عاد الدكتور عاطف وصفي بعد أن درس الأنثروبولوجيا في أمريكا، فدخلت تقاليد الأنثروبولوجيا الثقافية الأمريكية إلى قسم علم الاجتماع العتيق بجامعة القاهرة، وتنوعت وتعددت أكثر من قبل، ومن جهود وإسهامات وزملاء وتلاميذ هذين الأستاذين لكي يتسع ويتنوع التراث الأنثروبولوجي بجامعة القاهرة، ومنه ينتقل الإشعاع إلى سائر الجامعات ومراكز البحث المصرية.

وفي هذا الوقت نفسه كان الأستاذ الدكتور علي أحمد عيسى أستاذ الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية يساهم بجهده في الإشراف على رسائل طلاب هناك مثل: الدكتور أحمد أبوزيد (ماجستير)، والمرحومين الدكتور محمد عاطف غيث (الدكتوراه)، الدكتور علي

إسلام الفار (الدكتوراه)، والدكتور عبد الحميد لطفي (الدكتوراه). ولكي نفهم عمق هذا التأثير نذكر أن كلا من أصحاب تلك الأسماء أشرف لسنوات طويلة على قسم من أقسام الاجتماع بالجامعات المصرية، فتشعب التأثير، وإن كان قد تباين إسهام كل منهم عن الآخرين، فمنهم من مزج في جموده بين الدراسات السوسولوجية والأنثروبولوجية، ومنهم من غلب الطابع الأنثروبولوجي على عمله، ومنهم من كان مقلداً أو غير محدد الاتجاه بشكل مؤثر. ولا شك أن هذا العرض المجمل يتطلب تقنياً محدداً لإسهام كل من ورد اسمه، لكي لا تختلط الجهود أو تتداخل الإنجازات، ومع تسليمي بذلك فإنني أعتقد أن بعض الأسماء التي ذكرت أكبر وأشهر من أن تتداخل مع أحد أو تختلط على أحد.

ويسجل ريتشارد أطلون أيضاً ملاحظة جديرة بالاهتمام والتأمل، حيث يلاحظ تميز الدراسات الأنثروبولوجية المصرية منذ بداياتها الأولى بإجراء الدراسات الميدانية على نطاق واسع وبشكل مركز. ونسجل في هذا الصدد دراسات على عيسى وأحمد أبوزيد، وعاطف غيث، وغيرهم، غير أنه يلاحظ أن الفروض التي انطلقت تلك الدراسات للتحقق منها كانت مشتقة من كتابات علماء الاجتماع الفرنسيين، مما حقق نوعاً من الاتصال بين التراث السوسولوجي الذي كان قائماً في مصر، وتراث العمل الميداني المستحدث الوافد مع الاهتمام الأنثروبولوجي ذو التقاليد الأنجلوساكسونية⁽⁴⁾.

ووجه الأهمية في هذه الحقيقة أن الدراسات الأنثروبولوجية لم تكن أبداً أعمالاً إثنوجرافية وصفية بسيطة لبعض النظم الاجتماعية هنا أو هناك، أو لبعض المجتمعات المحلية، ولكنها كانت أعمالاً علمية تحليلية، مستندة إلى مادة ميدانية.

ومثال ذلك دراسة أحمد أبوزيد للماجستير عن "طقوس الجنائز عند المسلمين المصريين"، وقد استمدت إطارها النظري من كتابات هيرتز، وفان جينب، ورادكليف براون، واستمر نفس التراث التحليلي في الأنثروبولوجيا المصرية حيث قدمت علياء شكري دراستها عن "الثبات والتغير في عادات الموت في مصر من العصر المملوكي حتى العصر الحاضر"، مستندة إلى مادة من المدونات ومن الدراسة الميدانية، ليس بهدف التجميع، ولكن بغرض الكشف عن ظواهر التغير في تلك العمليات وديناميات هذا التغير وعملياته.

وتعددت الرسائل التي أشرف عليها فيما بعد أحمد أبوزيد عن تحقيق فروض وقياس مشكلات وتشخيص عمليات اجتماعية، مضرراً لها مثلاً برسائل الدكتور السيد حامد عن البوابة الجديدة، والدكتورة عليه حسين عن الوادي الجديد، والدكتور محمد عبده محبوب عن الكويت...إلخ.

كذلك تنوعت وتعددت الرسائل التي أشرفت عليها علماء شكري بقصد تحقيق فروض ورصد ظواهر وتشخيص مشكلات، أذكر منها على سبيل المثال: رسالة سعاد عثمان عن الأولياء (الماجستير) ومجتمع الجيرة (أطروحة الدكتوراه)، وأطروحة نجوى عبد الحميد عن الجماعات العرقية في منطقة أسوان (العبادية والنوبيين والصعايدة) للماجستير، وعن التنشئة الاجتماعية في إقليم الفيوم (الدكتوراه)، ومنى الفرنواني عن تغير المعتقدات السحرية في مجتمع حضري (الماجستير)، وعادات دورة الحياة (الدكتوراه)...إلخ.

هذان مجرد نموذجين يمثلان مركزين من مراكز قوة الدراسات الأنثروبولوجية في مصر: قسم الأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية، وقسم علم الاجتماع بكلية البنات بجامعة عين شمس، وقسم علم الاجتماع بجامعة القاهرة، وغيرها من الإسهامات الأنثروبولوجية في أقسام علم الاجتماع الأخرى في الجامعات المصرية.

ويرى أنطون أيضاً أن الدراسات الأنثروبولوجية في السبعينيات مازالت تركز اهتمامها الأول على دراسة مشكلات مصر الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة مشكلة النمو السكاني السريع، والأسرة وتنظيمها، والتحضر، والتصنيع، وتوطين الفلاحين في الأراضي المستصلحة وغير ذلك. ويستشهد على ذلك بموضوعات الرسائل التي أجزيت في قسم علم الاجتماع والأنثروبولوجيا بجامعة الإسكندرية (قبل استقلال قسم الأنثروبولوجيا)، والبحوث التي يجريها مركز البحوث الاجتماعية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، واستمر هذا الاتجاه في سائر أقسام علم الاجتماع بالجامعات المصرية، وإن كان حدث أن أضيفت إلى القائمة بعض المشكلات التي استجدت على الساحة الاجتماعية، وأهمها مشكلة العمالة المصرية المهاجرة بمستوياتها المختلفة، وغير ذلك من المشكلات⁽⁵⁾.

ولكن الاتجاه الثقافي في الدراسات الأنثروبولوجية قد استطاع طوال السبعينيات وحتى عام 1988 أن يحقق دفعات قوية، تمثلت في كم الرسائل التي أجيزت للماجستير والدكتوراه، ومشروعات البحوث التي أجريت في بعض تلك الأقسام وفي المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية وفي الببليوجرافيات والدوريات وغيرها.

نلاحظ من خلال هذا العرض إلى سمة خاصة للدراسات الأنثروبولوجية الجامعية في مصر، حيث تعيش الأنثروبولوجيا في الغالبية العظمى من الحالات مع علم الاجتماع في قسم واحد، وهو وضع قد يعتبره البعض في الظاهر وللوهلة الأولى وضعاً معوقاً لانطلاق العلم الأنثروبولوجي، ولكنه يمثل في نظري علامة صحية ووسيلة من وسائل القوة، وهذه الميزة ليست مقصورة على الجامعات المصرية بل كل الجامعات العربية ومنها حالة الجامعة الجزائرية، إذ وبعد نصف قرن من الاستقلال، وبعد الرجوع المحتشم للدراسات الأنثروبولوجيا لازالت مادة أو تخصص من علم الاجتماع وضمنه (قسم علم الاجتماع).

وإن كان الأنثروبولوجي بوتومور- الذي قدم إلى مصر- يرى في هذا الأمر ظاهرة صحية وسليمة، إذ أقر بهذه الحقيقة وأكدها وأقام الدليل عليها من واقع خبرته العلمية العريضة، حيث يؤكد على اتجاه كل من علم الاجتماع والأنثروبولوجيا إلى الالتقاء سواء من حيث الموضوع أو من حيث المنهج.

ولم تقتصر الانثروبولوجيا العربية على الجامعات المصرية بل تبعتها جامعات عربية في الشرق الأوسط كالجامعات العراقية و السورية والأردنية، وظهرت بها كوادرات سمعة عربية، مثل علي الوردي في العراق، والرابعة أحمد في الأردن، والدكتور جلال كاظم العظم في سوريا، وعلى نهج الجامعات المصرية ابتدأت الأنثروبولوجيا في أقسام علم الاجتماع ثم أصبحت لها قسم خاص بها، أو مع علم الآثار مثلما هو الحال في المملكة الأردنية بجامعة اليرموك.

إلا أن ما يميز الجامعات المصرية (القاهرة، الإسكندرية)، أنها تعرفت على الأنثروبولوجيا مبكرة، بل أن المؤسسين الأوائل لهذا العلم، هم من أسسوا التقاليد الأنثروبولوجيا بجامعاتها (راد كليف براون، أفانز برتشارد)، وفي الوقت الذي كان الطلاب

المصريين فيه يعدون أطروحاتهم الجامعية العليا كان الآباء الأوائل للأنثروبولوجيا في أوج عطاءهم العلمي، بل وتعلموا على أيديهم في أمريكا وبريطانيا (أحمد أبو زيد، والحشاش)، وهذا الأمر لم يتيح للبلدان العربية الأخرى، إذا ما استثنينا العراق (علي الوردي الذي درس في أمريكا)، لكن لم نسمع بعالم أنثروبولوجي غربي أسس قسم للأنثروبولوجيا، أو في الأقل درس الأنثروبولوجيا في جامعة عربية مثلاً هو الحال في مصر.

نستنتج مما سبق، أن لهذا الحدث دالتين اثنتين: الدلالة الأولى، وهي أن العرب وخصوصاً المصريين منهم على الأنثروبولوجيا مبكراً، والدلالة الثانية هو أنهم تعرفوا عليها من منبعها (مصدرها) الأول. لكن ما يعاب على الدراسات الأنثروبولوجيا العربية على تجزرها لازالت أسيرة البحوث الأكاديمية فلم تخرج بعد من أسوار الجامعات ولم توظف لخدمة التنمية أو هدف آخر يحفز من تطورها، فحالتها كحالة السوسيولوجيا في العالم العربي لمهي محل تأزم وأشكال، فلا زال ينظر إليها على أنها علم المستعمر وتخدم توجهاته (فرق تسد)، وان الدراسات والمواضيع المحلية التي تشغل عليها كالثقافة والأثنية والتطرف والأقليات، تشكل بها إزعاجاً للدولة ووحدتها الوطنية، فهي تتعارض مع توجهاتها الكبرى، وهذا بالرغم من وجود بعض المراكز العربية في الأنثروبولوجيا (علم الاجتماع والأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران/الجزائر، مركز البحث في الأنثروبولوجيا وعصور ما قبل التاريخ)، قسم الثقافة الشعبية بتلمسان، مركز ابن خلدون للدراسات الاجتماعية (مصر).

ثانياً: الأنثروبولوجيا في الجزائر من الوثبة إلى النكبة:

بالنسبة للحديث عن الأنثروبولوجيا في الجزائر بالنسبة للباحث يجد نفسه ملزماً على تقسيمها إلى فترات ثلاث، ذلك لأن كل تختلف عن الفترات الأخرى من حيث القوة والضعف لكل منها وطبيعة الدراسة والمرامي والأهداف التي كانت من ورائها ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل وهي مرحلة ما قبل الاستعمار وهي الدراسات الأستكشافية، ومرحلة والمرحلة الأستعمارية، ومرحلة الاستقلال.

1- المرحلة الاستعمارية- مرحلة الوثبة:

1-1 مرحلة ما قبل الاستعمار (الدراسات الاستكشافية).

قبل بداية الحملة الاستعمارية الفرنسية، وتحديدًا قبل تاريخ الهجوم الفرنسي في 14 جويلية 1830، فإن الإدارة الاستعمارية قد وفرت كل الشروط الضرورية لإنجاح العملية الكبرى المتمثلة في مشروع استعمار الجزائر. فالاهتمام بالجزائر مجتمعا وتنظيما كان من بين التساؤلات المطروحة ضمن المواضيع الموجودة حول تاريخ منطقة شمال إفريقيا. نفهم من هنا أن الحملة الاستعمارية الحقيقية لم تبدأ إلا في سنة 1830، وإنما بدأت قبل هذا التاريخ بسنوات عديدة، بحيث أن الحملة الاستكشافية قد بدأت منذ السنوات الأولى للقرن السابع عشر، واستمرت حتى نهاية القرن 18 عشر. والدليل على ذلك هو وجود الكثير من الوثائق والمخطوطات التي تصنف منطقة "البربر" ومنطقة "إفريقيا الشمالية" والتي تتحدث عن الممالك البربرية وممالك فاس والجزائر وغيرها. وكل هذه الوثائق والمعلومات وكذا المعطيات التاريخية كانت من اجتهاد الكثير من المعاصرين والمسافرين والقنصلين المتوجهين إلى الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وتحديدًا إلى شمال إفريقيا⁽⁶⁾.

هذه الوثائق والنصوص المكتوبة حول منطقة شمال إفريقيا قبل سنة 1830 كانت تهتم كثيرا بوصف العادات وأخلاقيات وقيم الجماعات والممالك البربرية، كما أنها تركز اهتماما على التاريخ الاجتماعي و الأبعاد الجغرافية المميزة للوسط الطبيعي للمنطقة. وهذا ما يجعل بعض الباحثين والنقاد حول المنتج المعرفي والأنثروبولوجي للدراسات الكولونيالية الأولى حول شمال إفريقيا، يحددون هذه المرحلة الأولى من الكتابات بالمرحلة الاستكشافية. بحيث يقولون إن المرحلة الأولى لظهور الأدبيات الأنثروبولوجية والأنتوغرافية الكولونيالية كانت تجهل الكثير من المعطيات التاريخية والاجتماعية حول الجزائر. لكن كلها تبين الأهمية الكبرى لعملية استعمار خضوع المنطقة.

ونجد في هذا الصدد كتابا هاما "فرانسا بناتي" (F.Pananti) الذي نشر في 1820، والذي يركز على أهمية احتلال الشمال الإفريقي بالنسبة لأوروبا، بحيث يعود حتى إلى الماضي الاستعماري لهذه المنطقة المتعلق خاصة بالوجود الروماني⁽⁷⁾. كل هذه المؤشرات

والوثائق تدل بكل وضوح على أن مشروع استعمار إفريقيا الشمالية والجزائر على وجه الخصوص، لم يبدأ تنفيذه سنة 1830 وإنما قبل هذا التاريخ بكثير. وهذه الشهادات التاريخية تعكس لنا جيدا الاهتمامات الكبرى التي كان يكتفها العسكريون الأوروبيون والفرنسيون خاصة والمنصبة على استعمار منطقة جنوب البحر الأبيض المتوسط. ونتيجة لهذه الاهتمامات المعرفية والإيديولوجية للإدارة الاستعمارية الفرنسية، ظهرت إلى الوجود عدة دراسات كولونيلية ذات الطابع التاريخي والأنثروبولوجي والأثنوغرافي. لكن ما يميز كل هذه الدراسات هو الطابع التاريخي الذي تنتمي إليه.

2-2- المرحلة الاستعمارية-

1-2 الدراسات العسكرية:

بعد أن تمت العملية الاستكشافية من طرف الدراسات الكولونيلية الأولى وخاصة تلك المرتبطة بتحضير الحملة الاستعمارية على الجزائر قبل 1830، ظهر على الساحة السياسية والمعرفية نوع آخر من الدراسات التي يمكن أن نصنفها ضمن الدراسات العسكرية.

وأغلب الدراسات التاريخية تتفق على أن الدراسات التاريخية العسكرية هي تلك الأبحاث التي تمت في المرحلة الممتدة بين سنة 1830 حتى سنة 1870. ذلك لكون هذه الأبحاث تترجم بصورة واضحة الوجود العسكري في الميدان الذي أقيمت فيه الدراسات نفسها وتترجم كذلك طبيعة الأهداف والأفكار التي تسعى إلى تحقيقها مثل هذه الأعمال.

وللتقرب أكثر من هذه العينة من الأبحاث العسكرية ركزنا تحليلنا ومقارنتنا على أعمال كل من "Hanoteau وكذا Letourneux" في دراستهما المشهورة حول منطقة القبائل، بعنوان: "منطقة القبائل و أعرافها" التي صدرت سنة 1893م. وهي من الدراسات الأولى التي قامت بها فئة الضباط والعسكريين، بل إن أصحابها يحتلون مناصب هامة ورفيعة في شؤون الإدارة العسكرية بالجزائر. الشيء الذي يترجم اهتمامهم وانشغالهم بالإيديولوجية

والمعرفية حول بعض القضايا التي نعالجها عند عرضنا لمحتوى الدراسة التي نحن بصددتها والمشار إليها أعلاه ، ومن أمثلة الدراسات العسكرية هي:.

● دراسة "جول ليورال" – (JulesLiorel)

تتمحور دراسة " جول ليورال " حول الأعراق البربرية لمنطقة قبائل جرجرة، وتندرج ضمن حقل الدراسات العسكرية التي تبلورت خاصة بعد نجاح الحملة الاستعمارية التي هيأت أرضيتها الأبحاث الاستكشافية التي تكشفت قبل سنة 1830، أي قبل تاريخ الدخول الفرنسي إلى شمال إفريقيا. لكن الشيء الرئيسي الذي يميز هذه الدراسة هو التاريخ الذي ظهرت فيه وهو نهاية 1892، وبالتالي فهي تأتي مباشرة بعد الدراسة التي سبق التعرض إليها. وليس غريبا أن نجدتها بالتالي متأثرة إلى أبعد حد بالخلاصات والنتائج السياسية والإيديولوجية التي توصلت إليها هذه الأخيرة.

2-2- الدراسات الأكاديمية

إلى جانب الدراسات الاستكشافية والأبحاث العسكرية التي كانت تشكل الحيز المعرفي لحقل الدراسات الكولونيالية، نجد انتشار صنف آخر من الدراسات حول الانتاج المعرفي الأكاديمي، والتي تطورت كثيرا، ابتداء من سنة 1870، وهو التاريخ الذي يميز بداية ظهور الأبحاث الجامعية حول الجماعات السكانية المستقرة في الجزائر، وكذلك حول كثير من المواضيع التي لها علاقة مباشرة بعملية التنظيم الإداري والسياسي لمختلف الجماعات الاجتماعية والريفية على وجه الخصوص. ويرجع سبب تصنيف هذه الدراسات إلى حقل الدراسات الأكاديمية، إلى طبيعة البحوث في حد ذاتها، وكذلك إلى أصحابها الذين ينتمون إلى فئة الجامعيين الذين تمكنوا من تأليف دراسات وأطروحات جامعية مختلفة تتمحور أساسا حول الإيديولوجية المعرفية والعلمية للإدارة الاستعمارية. أي إن هذه الأبحاث رغم كونها أبحاثا جامعية وأكاديمية بقيت دائما في خدمة الحاجات والمشاريع والأغراض الاستعمارية، بحيث أنها تشكل الإطار المعرفي والعلمي لكثير من التوجيهات والإجراءات العلمية للإدارة الاستعمارية خلال سنوات عديدة⁽⁸⁾.

- دراسة إميل مسكري "Emile Masqueray"

يمكننا من الوهلة الأولى أن نصنف دراسة هذا الأخير ضمن أهم الدراسات التي تشكل الحقل الدراسي الأكاديمي في إطار الدراسات الكولونيالية المنجزة حول الجزائر، لكن تصنيفنا لهذه الدراسة ضمن هذا الحقل، لا يعني بأنها بعيدة عن الانشغالات السياسية والفكرية المتبلورة في الإشكاليات الاستعمارية الإدارية والعسكرية. وهذا راجع لكل المواضيع والمسائل التي تعرضت إليها معظم الأبحاث الأكاديمية، التي غالبا ما تصطدم بالأهداف والمصالح العلمية للمشروع الاستعماري، فيحدث إعادة توجيهها واستغلالها لصالح هذه الأهداف، هذا من جانب ومن جانب آخر لاحظنا أن التوجيهات الإيديولوجية لهذه الدراسات تنصب أساسا على إيجاد التفسير العلمية لبلورة الاستراتيجية الاستعمارية في الميدان التنظيمي والإداري⁽⁹⁾.

2- الأنثروبولوجيا في مرحلة الاستقلال: مرحلة النكبة- أنثروبولوجيا بدون أنثروبولوجيين

لم تكن الدراسات الأنثروبولوجيا في العقدين الأولين من الاستقلال متطورة، أو موجودة أصلاً، بل غيببت الأنثروبولوجيا كونها علم الاستعمار، ولم يكن مرغوب فيها مع التوجهات الكبرى للدولة (الأشترائية) فالأهداف هنا اختلفت والمنطلقات تغيرت. الأنثروبولوجيا المغضوب عليها سياسيا و إيديولوجيا بعد الاستقلال، باعتبارها "العلم الاستعماري بامتياز"، ستختفي كمادة للتدريس والبحث، لتحل محلها السوسيوولوجيا لتعويم الجزء في "الكل": الكل الخاص الذي أريد به "العام" (العوام)، وهي سياسة تعليمية، تجتد متكاتها في النهج السياسي - الأيديولوجي الاقتصادي المختار (الأشترائية)، باعتباره نهجا مناهضا للاستعمار و"علومه" ووسائل عمله التي ينبغي إحداث القطيعة معها. واعتبار الأنثروبولوجيا "سندا لنجاح الاستعمار" - على رأي بن يحيى: (P.Lucas,J.C.Vatin: L'Algérie des anthropologues.P.264.).

وفي هذا السياق وهذه الظروف، على غرار غالبية المجتمعات العربية التي كانت خاضعة للاستعمار، كانت إيديولوجية أنظمتها الحاكمة ترى حاجتها لعلم الاجتماع لضرورات

تنمية واستكمال لتحررها (النظرية الماركسية ومناصرة الشعوب المستضعفة) إذ حين تأسس علم الاجتماع في مصر كان المجتمع المصري على عتبة التحولات، ولكنه لم يزل مجتمعاً تقليدياً، فلم يختبر التحولات الكبرى التي أفضت ظهور علم الاجتماع في أوروبا، قبلها في تنظيمه الاجتماعي، زراعياً ورعياً في تديره المعاشي وحركة التصنيع الذي سطرت له أهداف كبرى لم يتوطن ثقافياً وبقي في محده، فثقافة الزراعة والقرية ظلت سائدة في المدينة والمصنع، لذلك مارس معظم الباحثين الاجتماعيين الأنثروبولوجيا بقصد أو بدون قصد، أو بطريقة لا شعورية، لأن المجتمع الجزائري الحديث العهد بالاستقلال كان يعيش عكس ذلك، أي عكس ما تريده له الدولة آنذاك، أي المجتمع المتمدن الشاغل للفضاء الحضري. وفي تلك الفترة جندت دراسات اجتماعية كثيرة حول المصنع في العالم الحضري لمواكبة حركة التصنيع في العالم الحضري ونفس الشيء بالنسبة للعالم الريفي لإنجاح حركة الإصلاح والثورة الزراعية، وقد حاول الخطاب الرسمي في فترة السبعينيات، أن يجعل من العلوم الاجتماعية، وعلم الاجتماع تحديداً مادة نضالية لا تفسيرية، تلعب دوراً في عملية التحرر الاقتصادي والثقافي⁽¹⁰⁾ وهذه الحقيقة تلامس الواقع، ودون المبالغة في القول: "أن علم الاجتماع في الجزائر نشأ بلا موضوع يدرسه، فقد بدا للعديد من المشتغلين بهذا العلم استنباطاً أكثر منه إستقراءياً". لأن لا سوسيولوجيا تريدها الدولة إلا التي كانت ترى فيها ضالتها وممتلكاتها الأيديولوجية.

على هذا النحو، طرح الإشكال بعد الاستقلال: أية أيديولوجيا لأي مجتمع؟ بما يعني رفض أي منهج " معارض " "للأيديولوجيا الوطنية"، بما في ذلك المناهج التكوينية والتربوية المعتبرة " معادية للاشتراكية"، المسماة "مناهج برجوازية"، بما في ذلك السوسيولوجيا، ناهيك عن الأنثروبولوجيا!

أما الأنثروبولوجيا، فقد حالت دونها عقبات، مما جعلها تتراجع بشكل ملحوظ عما كان عليه الحال قبل الاستقلال. تراجع في التكوين وفي الممارسة الميدانية، أدى في الأخير إلى غياب شبه كلي لأنثروبولوجيين جزائريين، ومنهم من أثر الهجرة والنشاط في الأكاديمية البربرية، وباستثناء بعض الباحثين المستقلين (مولود معمري مثلاً، والذي انكب على

البحث في مجال الثقافة الشفهية واللغة الأمازيغية)، فإن معظم الدراسات والبحوث بقيت نظرية أو ماكرو-سوسيولوجية. ومن الذين اشتغلوا ضمن هذا الحقل بعد لاستقلال، من الجامعيين الفرنسيين، ممن كانوا على علاقة بالاهتمامات ذاتها قبل الاستقلال، ومن أبقى عليهم (بورديو، بيرك، آجرون، إضافة إلى قائمة من الباحثين: كولونا، مندوز، إيف لاكوست، غاليسو...)، تحولوا إلى دراسة الإنسان الجزائري من منظور سوسيو- تاريخي واقتصادي عام ضمن سياق التغير الاجتماعي والاقتصاد السياسي الجديد، دون أن تحظى الأنثروبولوجيا بالاهتمام للأسباب المذكورة. فقد افرد البعض لدراسة تبعات ومخلفات الاستعمار ضمن نهج "تصفية الاستعمار" ((Chaulet, Lucas, Berque)، ودرسته في سياق التحولات الجديدة، والانتقالية من مجتمع تحت الاحتلال إلى مجتمع "مالك للأرض"، لامزاو للتعليم "الحر والإجباري" لالشغل للفضاء المعاري الحضري أو الريفي "الجديد"، الممارس لشعائر دينه وتقاليد وعاداته. كما نجد ذلك الاهتمام بفكرة الطبقات الجديدة التي أنتجها المجتمع الجديد (R.Galisot; Maghreb; classes et nation)، هذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الكتابات تضرب صفحا عن المواضيع الأنثروبولوجيا التي كانت تسترعي الاهتمام قبل الاستقلال، أو لنقل أن الدراسات الأنثروبولوجية قد ذابت في السوسيولوجيا، أو بشكل آخر أن الأنثروبولوجيا قد مورست في غياب الأنثروبولوجيين⁽¹¹⁾. ويقسم الباحث عمار يزلي ممن اشتغلوا على مواضيع أنثروبولوجيا إلى ثلاث صفوفات:

- الصفوة الأصلية: التي جعلت من "العروبة والإسلام" حقلا ومنهجيا باعتبار أن هذين العنصرين يمثلان "أصالة الشعب الجزائري" (عبد العزيز الخالدي، مالك بن نبي وبعض تلامذة التيار الإصلاحي)
- الصفوة الماركسية: والتي تبنت النهج الاشتراكي، فلسفة ومنهجيا اقتصاديا (كاتب ياسين مثلا باعتباره أدبيا وباحثا في التراث الشعبي والمسرحي)
- الصفوة التوفيقية: والتي حاولت التوفيق بين البينيين (أحمد طالب الإبراهيمي، مولود قاسم، مصطفى الأشرف).

أما الأنثروبولوجيا، فقد حالت دونها عقبات، مما جعلها تتراجع بشكل ملحوظ عما كان عليه الحال قبل الاستقلال. تراجع في التكوين وفي الممارسة الميدانية، أدى في الأخير إلى غياب شبه كلي لأنثروبولوجيين جزائريين، وباستثناء بعض الباحثين المستقلين (مولود معمري مثلا، والذي انكب على البحث في مجال الثقافة الشفهية واللغة الأمازيغية)، فإن معظم الدراسات والبحوث بقيت نظرية أو ماكرو-سوسيولوجية.

وبعد ثلاث عقود من الاستقلال كان هناك رجوعاً محتشماً للممارسات الأنثروبولوجيا، مع بوخبة، حفيظ بنون، نذير معروف، أحمد بن نعوم، عبد الرحمان موساوي، سليم خياط، عبد العزيز رأس المال، وتأسيس مراكز بحث، مثل مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية الثقافية بوهران، معهد الثقافة الشعبية بتلمسان، وأصبحت الأنثروبولوجيا تدرس في الجامعات وان كانت كمقياس أو كتخصص مقصورة على ما بعد التدرج، جامعة وهران وجامعة خنشلة.

3- الأنثروبولوجيا في الجامعات الجزائرية: التأسيس الأكاديمي المرتبك

إذا كانت الأنثروبولوجيا دخلت مصر عن طريق الجامعة وانطلقت تطبيقاتها الميدانية نحو المجتمع المصري من أقسام الأنثروبولوجيا أو أقسام العلوم الاجتماعية عامة، ونظريا تأسست أقسام الأنثروبولوجيا من طرف الآباء الأوائل الذين ارسوا دعائم هذا العلم في بلدانهم، ودعمه من طرف الدولة فإن الأمر مختلف عنه في الجزائر، فقد غابت الأنثروبولوجيا كتخصص أكاديمي في الجامعات الجزائرية كافة فقد ألحقت بها تلك الوصمة المدنسة وهي أن الأنثروبولوجيا علم أو في الأقل مساندة للاستعمار، وهذه النظرة السلبية لم تكن موجودة في مصر، وربما ترجع إلى طبيعة النظرة المتعلقة بالاستعمار نفسه والتي كان ينظر إليها المصريون على الدراسات الأنثروبولوجية ما قبل الاستعمار ولم تنظر السلطة المصرية إلى الدراسات الأنثروبولوجيا التي قام بها الأنجليز إن وجدت أثناء فترة الحماية لتسهيل عملية الهيمنة، وقبلها الفرنسيين لما أصطحب نابليون بونابرت لأزيد من 150 عالما وباحثا فرنسيا وما انجزوه في مصر دور الدافع والحافز للتعرف للعلوم الأوروبية الحديثة وممارستها"، بل أكثر من ذلك كانت ردت الفعل إيجابية بمسيرة الاتجاه البحثي والعلمي

أكثر، تجلّى ذلك في بعثات محمد علي الطلايية للبلدان الأوربية، وبالتالي كانت مصر دائماً متقبلة للحضارة الغربية ومنتجاتها ومنها الأنثروبولوجيا، وربما يرجع ذلك أيضاً إلى طبيعة الاستعمار نفسه الذي لم يكن متطرفاً وعنيفاً في مصر مثلاً هو الحال عليه في الجزائر.

كل هذه العوامل مجتمعة أدت إلى النظر إلى الأنثروبولوجيا من طرف السلطة في الجزائر مغايرة للنظرة السلطات في مصر، بالرغم من إن الإرث السوسيولوجي والاثروبولوجي حول الجزائر في الفترة الاستعمارية يفوق بكثير مما هو لدى المصريين وربما ولا يتوفر لأي دولة عربية كانت مستعمرة، بل ونتيجة قوته تشكل في شكل اتجاهات ومدرّس، "وبالرغم من مرامي تلك الدراسات وأهدافها فهي تمثل اليوم رصيذاً هاماً من المعطيات والمعلومات التي لاغنى عنها لفهم حقيقة حاسمة من مجتمعتنا"⁽¹²⁾.

ولذلك فعوض أن يجد الباحث نفسه عوض استقراء لوضعية الأنثروبولوجيا أكاديمياً أي سيرورتها في الجامعات الجزائرية يجد الباحث نفسه في عرض واستقراء لسيروية السوسيولوجية، إذ كانت ملحقة بها، بل وأن الأنثروبولوجيا المتميزين الذين اشتغلوا في حقل الأنثروبولوجيا خصوصاً المخضرمين منهم (بورديو، وشولي)، واصلوا جهودهم العلمية والبحثية في أقسام السوسيولوجيا بعد الاستقلال هاته الأخيرة التي لم تكن بدورها هي كذلك مستقلة عن الفلسفة في السنوات الأولى من الاستقلال مما جعلها تعيش حالة تأزم. ويمكن تأزم السوسيولوجيا ومن ورائها الأخت التوأمة الأنثروبولوجيا، في عدم التعرف على السوسيولوجيا من طرف الجزائريين في العقد الأول من الاستقلال، فلم يتم التعرف عليها كعلم مستقل بعد عدة سنوات من الاستقلال، لأسباب عدة ومنها الاستعمار نفسه، إذ لم تكن محل تدريس في المعاهد العليا التي تأسست 1871 ولا في الجامعة التي برزت إلى الوجود سنة 1909، وعلى كل حال فلم يكن التمثيل الجزائري غلا تمثيلاً رمزياً، ومن ناحية ثانية أن السوسيولوجيا كعلم لم تكن لتوظف في مشروع المقاومة كما كان الحال بالنسبة للتاريخ، الذي وظف منذ الاستقلال بل ومنذ بداية عصر النهضة أو الاستفاقة، نلاحظ بروزاً قوياً للدراسات التاريخية التي تذهب جميعها في اتجاه التأكيد على ديمومة الأمة الجزائرية وخصوصياتها واختلافها عن فرنسا".

بل وان السوسيولوجيا ذاتها في بداية الاستقلال لم تكن تخصص مستقلا بل كانت وريثة تقاليد المناهج الفرنسية في الدولة المستعمرة ومنها جامعة الجزائر في بداية الخمسينيات حيث كانت تدرس مادة علم الاجتماع لنيل أحد شهادات الليسانس في الفلسفة ومنها شهادة تحت عنوان "الأخلاق والسوسيولوجيا" Moral et Sociologie، ومع نهاية الخمسينيات كان ضمن مقررات شهادة الليسانس في الآداب والعلوم الإنسانية جملة من المواد تدرس، ومنها شهادة في علم الاجتماع، شهادة في علم النفس الاجتماعي، الاقتصاد السياسي، الديمغرافيا والأنثوغرافيا لشمال إفريقيا. واستمر الحال على هذا التقسيم طوال فترة الستينيات، وحتى بداية السبعينيات لما أستقل علم الاجتماع عن دائرة الفلسفة كانوا خلفية التكوين الفلسفي، وكان نشاطهم البحثي الميداني على علاقة بحثية مباشرة مع "الجمعية الجزائرية للبحث في الديمغرافيا والاقتصاد وعلم الاجتماع" (AARDES)، التي أسسها بورديو بمرافقة عبد المالك صياد الذي كانت له إسهامات أساسية ساعدت على تشكل المدرسة النظرية التي جمعت بين المقاربة النظرية والتأصيل النظري لبورديو⁽¹³⁾. ولم يستقل قسم علم الاجتماع نهائيا عن الفلسفة إلا سنة 1980 حيث تم إنشاء قسم علم الاجتماع الذي كان يشرف على إدارته إميل سكار Emil Sicard، وفي هذه السنة بالضبط تم تعريب العلوم الاجتماعية بقرار سياسي مما أدخل الرعيل الأول من مدرسي علم الاجتماع حالة من التيه اللغوي لأنهم كانوا ينتمون إلى جيل يتميز بأحادية اللغة العلمية/الفرنسية، والتكوين الفلسفي، وأخذ وعيه ككتلة سوسيولوجية مغلقة ذات توجهات يسارية في السنوات الممتدة ما بين سنة 1970-1975⁽¹⁴⁾.

وبنظرة موضوعية وتقييمية لحالة السوسيولوجية في الجزائر وهي تمثل عينة للبلاد العربية، لعالم اجتماع جزائري وهو المرحوم جمال الدين غريد الذي بدأ حياته العلمية كعالم اجتماع وأختتمها بالأنثروبولوجيا ويقاسمه كثيرا من علماء الاجتماع العرب "الوضعية الجزائرية اليوم بالنسبة للسوسيولوجيا هو ما نلاحظه اليوم في الجزائر هو وجود مؤسساتي ومادي قوي وصاحب وسلطة سوسيولوجية في غاية الضعف ومستوى علمي آخذ في الابتعاد عن المستوى الدولي، هذا الوجود المؤسساتي، إذ لا تخلوا أي جامعة تقريبا من تدريس

السوسيولوجيا، فرض أنطباعاً، بأن السوسيولوجيا موجودة وهي بخير، وقد يكون هذا الانطباع وهماً⁽¹⁵⁾. وتزامناً مع توسع تدريس السوسيولوجيا في جامعات الوطن الكبرى (قسنطينة، عنابة، الجزائر، وهران) في منتصف الثمانينات إذ كانت تعقد التظاهرات العلمية الكبرى الوطنية والدولية حول السوسيولوجيا بانتظام تقريبا من بينها المؤتمر الدولي الرابع والعشرين لعلم الاجتماع الذي عقد بالجزائر سنة 1975، "إذ تم التركيز في الخطاب التوجيهي الذي ألقاه وزير التعليم العالي السيد الصديق بن يحيى عن أسباب الحذر والتنفيير من المعرفة السوسيولوجية باعتبارها معرفة تستمد وتمثل استمرار المعرفة الكولونيالية، وخاصة الجانب المرتبطة بعلم الجناس (الأنثروبولوجيا)، وهي مادة تخصص أوجدتها حسب الخطاب الرسمي ظروف تاريخية خاصة وقائمة على الافتراض القائل بأن بعض المجتمعات لم تعرف التطور وأن بينياتها تشمل على ميزات تجعلها غير قابلة للتطور"⁽¹⁶⁾. وخلال تلك الفترة وما بعدها سواء في التظاهرات العلمية⁽¹⁷⁾ أو الجامعة نجد تغيب لكلمة أو مصطلح "أنثروبولوجيا"، وعدم وورود أسمها حتى في خطابات الأنثروبولوجيين الذين مارسوا الأنثروبولوجيا تحت غطاء السوسيولوجيا فلم تكن لهم الشجاعة للبوح حتى بمجرد المصطلح فكانت تورد باسم الثقافة الشعبية أو المحلية، أو كانت توصف باستعارات أخرى بل ولم تكن وحدة للتدريس حتى في تخصص علم الاجتماع، فالسوسيولوجية حتى العقد الثالث من الاستقلال كانت مراقبة وينظر إليها بحذر والخطاب الرسمي يتوجس منها خيفة بالرغم من عدم وورود مصطلح "أنثروبولوجيا" في ذلك الوقت، ف"السوسيولوجيا"- في نظر السلطة- لازالت تحمل في رحما الأنثروبولوجيا، العلم المزج والمشاغب دوماً.

هذه الرؤية و"هذا المنطق جعل العلوم الاجتماعية والإنسانية ينظر إليها نظرة دونية، إن كان على مستوى رسم الاستراتيجيات العامة للتعليم العالي، أو البحث العلمي ومشاريعه التي أصبح يغلب عليها الطابع التقني المفرط على حساب المعرفي الأساسي في كل تجلياته النظرية والتطبيقية"⁽¹⁸⁾.

وإذا نظرنا إلى التاريخ القصير للسوسيولوجيا فأنا نلاحظ اختلافاً بين السوسيولوجيا العقدية الأولين من الاستقلال وسوسيولوجيا العقدين اللاحقين، فسوسيولوجيا المرحلة الأولى تميزت أساساً بتطور مفرد لسوسيولوجيا النظرية وبغياب وتغيب للمجتمع وقضاياه العينية، بينما المرحلة الثانية تميزت بالعكس تماماً، ففيها احتلت قضايا المجتمع المختلفة مكان الصدارة وفيها تراجعت وضعت مقارباتها العلمية، فكلا المرحلتين تميزت بنقص في جانب مما يقيها دون المستوى المطلوب، و"في الوقت الذي كانت تتعصب فيه السوسيولوجيا في الجزائر للنماذج الأستيمولوجية للسبعينيات، كان المجتمع يتغير وفي تغيره كان يطرح على السوسيولوجيا نماذج ومشاكل اجتماعية جديدة وانبعث أوجه أخرى قديمة، أو تقليدية (الأثنية، الزاوية، الدين....) ظنّ الكثيرون إنها اختفت أو أنها على الأقل في طريق الاختفاء"⁽¹⁹⁾ من الخارطة الاجتماعية كلقبيلة، لتترك مكانها للبنى الحديث كالحزب والمجتمع المدني. والإجاعة/العمل لم تعد هي الشكل السائد أو المهيمن في علاقات العمل، بل النشاطات اللاأرسمية لهي في تصاعد مستمرة، والمطالب بالحريات والاعتراف بالهويات الثقافية تجلّى ذلك في حركة الربيع الأمازيغي. مع ارتفاع ظاهرة البطالة في المدن الناتجة عن غلق المؤسسات الصناعية التي كانت ميداناً للدراسة السوسيولوجية ومع بداية التسعينيات كثر الطلب على السكن والعمل والمعطيات الدولية تغيرت ووجدت الدولة نفسها تعيش عهد التداخلات. فسمحت بالانفتاح الاقتصادي والسياسي وحرية التعبير، مما أدى إلى تخفيف الخطاب الأيديولوجي اتجاه الآراء العلمية المزعجة. وجرّت أول انتخابات تعددية حزبية، فكانت النتائج عكس ما كان متوقع مما أخرج زعيم حزب سياسي عن صمته: "لم نكن نعرف المجتمع الجزائري"، وهي عبارة كانت كافية من السلطة للتعبير واعتراف بأن المجتمع كان يسير عكس السوسيولوجيا التي رُسمت له طوال حقبة من الزمن التي أريد للمجتمع أن يسير وفقها، أي كانت تتم مقارنة المجتمع كما يجب أن يكون لا كما هو كائن.

أمام هذا الواقع الذي أفرز واقعاً آخر بدوره لا يقل إشكالاً عن سابقه، يعاد طرح الأشكال من جديد وفق معطيات برؤى جديدة لموضوعات جديدة أي إنسان وأي مجتمع

تتعامل معه وفيه ومنه؟ أية تركيبة ذهنية تتحكم في مساره وبالتالي يجب دراسة المجتمع/الإنسان الجزائري كما هو، لا كما يجب أن يكون⁽²⁰⁾، - رغم الخوف الذي أبدته بعض الأوساط من "معالم التنوير" لهذا العلم المشاغب في نظرها-، وقد تجسد ذلك عمليا في أنشاء أول وحدة للبحث في الأنثروبولوجيا في بداية التسعينات في السانية وهران، ثم تطورت إلى مركز بحث له فروع وفتح أول تكوين له في الدكتوراه للطلبة من كافة التخصصات في العلوم الاجتماعية والإنسانية وحتى الجغرافيا، وأطلق نشاطاته العلمية والبحثية استكمال العقد الأول من تأسيسه فكثرت الدفاتر والدوريات والمجلات العلمية، أشهرها "مجلة أنسانيات" في الأنثروبولوجيا والتي زالت تصدر حتى اليوم، ولا يمكن تجاهل الجهود المطبنة في تنظيم التظاهرات العلمية، من بينها وقائع ملتقى عقد سنة 1999 "حول مستقبل العلوم الاجتماعية في الجزائر"، وكذا أنتاجه لكتاب حوصلة العلوم المعارف في العلوم الاجتماعية والإنسانية في الجزائر بعد خمسين سنة الذي نشر في الجزائر من طرف المركز سنة 2008⁽²¹⁾. ثم أعقبها أنشاء معهد الثقافة الشعبية في تلمسان والذي هو أيضا أختص بالتكوين أكثر من البحث واستقبل تخصصات في علم النفس والاجتماع والآداب من حملة الليسانس، لينحهم شهادات فيما بعد التدرج في التخصص وكانت بدايته تحت سلطة وزارة الثقافة لتتولى وصايته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي فيما بعد، وكذا المركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان والتاريخ، والذي هو بدوره منذ إنشائه وإلى اليوم تحت وصاية وزارة الثقافة، وخلال هذه المدة تقريبا أي حقبة التسعينيات لم يفتح تخصص الأنثروبولوجيا في الجامعات فالتجربة الأولى للأنثروبولوجيا كانت مسموح بها خارج الجامعة وبعض منها خارج وزارة التعليم العالي، وكان على الجامعة أن تنتظر حتى سنة 2002 كي تفتح مشروع مسابقة الماجستير للتكوين فيما بعد التدرج من طرف المرحوم جمال الدين غريد بقسم علم الاجتماع بجامعة وهران، حمل المشروع اسم "أنثروبولوجيا الجزائر المعاصرة" بستة مناصب وهي أول تجربة في الجزائر على الإطلاق للتكوين في الأنثروبولوجيا في الجامعة، ثم أعقبها دفعة أخرى بثمانية مناصب بمشروع حمل نفس الاسم في السنة الموالية، ثم في سنة 2004، وسنة 2005 مشروع

أنثروبولوجيا المعرفة من طرف الأستاذ: غريد نفسه وتلتها دفعات في أنثروبولوجيا المدينة وأنثروبولوجيا الصحة وكل ذلك إلا في إطار ما بعد التدرج.

ومع رياح التغيير التي لحقت بالجامعة ضمن إطار التكوين وتغيير البرنامج في إطار "ل م د" LMD، تم فتح تخصص سوسيوأنثروبولوجيا وليس أنثروبولوجيا بمفردها، بجامعة تبسة 2007 من طرف الأستاذة بروقي وسيلة كان ذلك سنة 2005-2006 وتلتها أربعة دفعات في الليسانس متتالية ليتوقف المشروع، وشهادة المقدمة كانت تسمى ب" شهادة الليسانس في علم الاجتماع شعبة علم الاجتماع الأنثروبولوجيا" وضمن قسم العلوم الاجتماعية، واستمر التكوين في الماستر بأول دفعة سنة 2008/2009، حملت أسم أنثروبولوجيا عامة وأشرفت عليها الأستاذة بروقي وسيلة، وتلتها ثلاث دفعات متتالية، إلى أول سنة دكتوراه ل م د LMD كانت سنة 2016، ونفس الشيء تقريبا بالنسبة لجامعة خنشلة وفي نفس المدة إذ ابتدأت التكوين في السوسيوأنثروبولوجيا في الليسانس والماستر وتخمه بالأنثروبولوجيا، وكان التكوين في السوسيوأنثروبولوجيا في التدرج يكاد يكون حصراً في هذين الجامعتين فقط إلى يومنا هذا، أما التكوين في ما بعد التدرج، يمنح دكتوراه ل م د LMD، فقد أستمروا بوتيرة متسارعة - ولأنجاح نظام ل م د LMD- في جامعة متعددة من الوطن كجامعة تلمسان، وجامعة مستغانم (دفعتين 2012/2013- 2013/2014)، أشرف عليها الدكتور سيكوك قويدر، وجامعة ورقلة أكتوبر 2016، أشرف عليها الدكتور خليفة عبد القادر الذي ينتمي لأول دفعة في الأنثروبولوجيا في جزائر الاستقلال والتي قام بتكوينها مركز البحث الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية وهران وقسنطينة في نهاية تسعينيات القرن الماضي. وفي الوقت ذاته أستمروا التكوين في الأنثروبولوجيا في الماجستير في إطار المدرسة الدكتورالية بين جامعتين أو أكثر مثلما هو الحال بين جامعة أدرار وجامعة مستغانم سنة 2014.

نستخلص من خلال هذه المسيرة للأنثروبولوجيا منذ السماح بتداولها في الأوساط والخطابات الأكاديمية منذ منتصف التسعينيات، وحتى العقدين اللاحقين في الألفية الثانية أن الأنثروبولوجيا تم تجربتها خارج أطرها التقليدية الأولى (الجامعة والمؤسسات الأكاديمية)،

مركز الثقافة الشعبية بتلمسان، بل وأحيانا ليس تحت وصاية التعليم العالي، بل وزارة الثقافة مثلما هو الحال بالنسبة للمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الإنسان، وذلك ليسهل التحكم فيها، ولربما لتوظيف كآثروبولوجيا ندية لكل أنثروبولوجيا مناوئة ومزعجة للدولة قد تأتي من الجامعة وأقسام العلوم الاجتماعية، أو الأصباغ الدور الثقافي عليها وليس العلمي، والميزة الثانية وهي أن الأنثروبولوجيا لم تكن محل التكوين في التدرج سواء في النظام الكلاسيكي أو حتى نظام ل م د، مما يعني ان الدولة هي التي تقرر التكوين في التدرج وتولي المقررات، وبالتالي تخضع لسياسي وليس العلمي، حتى وإن حدث فهو قد أنحصر في جامعتين في الشرق الجزائري (تبسة، وخنشلة)، ولمدة معينة فقط، وجاء باسم "السوسيواثروبولوجيا" لتعويم الجزء في الكل على حد تعبير الأستاذ عمار يزلي وليس مصطلح/تخصص "أنثروبولوجيا" خالص، مما يدل على أن المصطلح لا يزال مزعجاً، وبالرغم من هذه المسيرة الطويلة والتكوين البشري، لم تستقل بقسم وحدها مثلما هو الحال في جامعة آل البيت باليرموك بالملكة الأردنية الهاشمية، والميزة الثالثة وإن جل المكونات فيها تنوعت وتعددت تخصصاتهم فيما قبل التدرج، وكانت غير الأنثروبولوجيا مما يترك لديهم أنطباعا لسلطة تكوينهم الأولي بالرغم من شمولية هذا العلم.

لكن بالرغم ومن كل هذا يجب أن نثمن كل ذلك الجهد المبذول والمتنامي، فلكلي جواد كبوة. وأن من كونهم مركز البحث في الأنثروبولوجيا CRASC ، أصبحوا اليوم من يشرف على التكوين في الأنثروبولوجيا على مستوى الدكتوراه في الأنثروبولوجيا، وأن ذلك المركز خير دليل صحة حالة الأنثروبولوجيا في بلادنا، الذي أصبح ينافس ويقف بالندية لمراكز البحث العربية بل والعالمية، وما زيارة كبار علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين العالميين ليحاضروا فيه أو يقيموا ندوة علمية، واحتضانه لتظاهرات عالمية كان آخرها "خير دليل على ذلك، لكن هذا التطور على مستوى مركز البحث أما بالنسبة للجامعة، فمنذ بداية الألفية ودخلت معها الأنثروبولوجيا للجامعة، "تمت إعادة النظر في وظيفة الجامعة ذاتها والدراسات الأكاديمية، بالرغم من فتح الجامعات الجديدة برامجها للعلوم الاجتماعية وومنها الأنثروبولوجيا، لكن في الوقت ذاته تم التركيز والعمل على تأسيس نظام بيداغوجي جديد مشكلاً من

مكونات أكاديمية، وأخرى مهنية، مع اعتماد تسميات جديدة للشهادات تعطي الأنطباع وتصور للجامعة وكأنها مقاولات ذات طبيعة سوسيو-اقتصادية، هدفها تحضير الطلبة للاندماج في النشاط الاقتصادي والاجتماعي وليس النشاط البحثي، وهذا هو الحال بالنسبة إلى الجامعة الجزائرية الآن خاصة بعد اعتماد نظام ل م د LMD المختلف على توجهاته ونجاعته المعرفية²²، وخاصة على مستوى العلوم الاجتماعية ومنها السوسيوولوجية والأنثروبولوجيا، ويبقى لكل مجتهد مصاب.

المراجع والهوامش

- ¹ - بدوي أحمد موسى، التكوين العلمي السوسيوولوجي في المشرق العربي- علم الاجتماع بحثا وتدرسا في مصر والسودان، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2012، ص 131.
- ² - جمال الدين غريد، الزرع الأشكالي للسوسيوولوجيا فيالعالم العربي حالنا مصر والجزائر، كتاب علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقعج، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2004، ص 74.
- ³ - الجوهري محمد. شكري، علماء.. مقدمة فيدراسةالأنثروبولوجيا، بدون دار النشر، 2008.
- ⁴ - الجوهري م. شكري، ع: 2008.
- ⁵ - الجوهري م. شكري، ع: 2008.
- ⁶ - فراحي محمد آكي، الإشكالية المعرفية للسوسيوولوجيا الكولونيالية في الجزائر، دراسة عينة من الأبحاث الكولونيالية التي أنتجت حول منطقة القبائل، كتاب علم الأجتاع والمجتمع في الجزائر، مرجع سبق ذكره، 93.
- ⁷ - المرجع نفسه،، ص 94.
- ⁸ - نفس المرجع السابق، ص 104.
- ⁹ - فراحي محمد، آ، 2002.
- ¹⁰ - عروس الزوير، مدخل تاريخ وواقع الممارسة السوسيوولوجية: المدرسة المغاربية نموذجا، المستقبل العربي، حزيران يونيو 2012، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ص 129.
- ¹¹ - عمار يزلي، مرجع السابق، ص 85.
- ¹² - جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص
- ¹³ - عروس الزوير، ص 120-121.
- ¹⁴ - عروس الزوير، المرجع السابق، ص 121
- ¹⁵ - جمال الدين غريد، المرجع السابق، ص 76.
- ¹⁶ - عروس الزوير، المرجع السابق، ص 130، شارك في ذلك اللقاء 530 عالم أجتاع قدمو من 70 بلدا، وقدم فيه نحو 260 بحثا لم تنشر بعد.
- ¹⁷ - مؤتمر كنستال/ وهران 1984. وأول مؤتمر علمي ينفصل فيه الخطاب السوسيوولوجي عن الخطاب السياسي ويعارضه.
- ¹⁸ - عروس الزوير، المرجع السابق، ص 109.
- ¹⁹ - لقعج عبد القادر، تعريب، جمال الدين غريد، الجزائر أرض مغامرة للسوسيوولوجيا، علم الأجتاع والمجتمع في الجزائر،

²⁰ - عمار يزلي، الجزائر والأنثروبولوجيا، المناهج والموضوعات، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، المرجع السابق، ص 91.

²¹ - أنظر وقائع ملتقى، أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر- وقائع ملتقى أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، الذي عقد بتميمون- أدرار نوفمبر 1999، من تنسيق نزيير معروف وخديجة عادل،، ونشر في كتاب تحت عنوان أي مستقبل للأنثروبولوجيا في الجزائر، CRASC، وهران 2002. أما كتاب: الجزائر بعد 50 سنة، حوصلة المعارف في العلوم الاجتماعية والأنسانية، 1954-2004 تحت اشراف نورية بن غريوط رمعون ومصطفى حداد، مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران 2008.، وبين الحديثين وفي معناها دلالة وعمق كبيرين، فالأول جاء ليضع سكة البحث الأنثروبولوجي على السكة في الجزائر ويوجه لها المسار الصحيح، فيخطط ويستشرف لما هو آت، أما الثاني فجاء كحوصلة لما فات، لاسمها الجزء الأول منه، تحت عنوان : الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع والعلوم الاجتماعية عناصر من أجل حوصلة عامة.

²² - عروس الزويير، المرجع السابق، ص 120.

المراجع المتقدمة:

- 1- الجوهري، محمد، علياء شكري، مقدمة فيدراسة الأنثروبولوجيا، بدون دار النشر، 2008،...:2008
- 2- بدوي أحمد موسى، التكوين العلمي السوسولوجي في المشرق العربي- علم الاجتماع بحثا وتدرسا في مصر والسودان، المستقبل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 2012.
- 3- جمال الدين غريد، الزرع الأشكالي للسوسولوجيا فيالعالم العربي حالنا مصر والجزائر، كتاب علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصة للنشر، الجزائر، 2004.
- 4- فراحي محمد آكلي، الإشكالية المعرفية للسوسولوجيا الكولونيلية في الجزائر،دراسة عينة من الأبحاث الكولونيلية التي أنجزت حول منطقة القبائل، كتاب علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر، 2004.
- 5- عروس الزويير، مدخل تاريخ وواقع الممارسة السوسولوجية: المدرسة المغاربية نموذجا، المستقبل العربي، حزيران يونيو 2012، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان.
- 6- عمار يزلي، الجزائر والأنثروبولوجيا، المناهج والموضوعات، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر، 2004.
- 7- لقجع عبد القادر، تعريب، حال الدين غريد، الجزائر أرض مغامرة للسوسولوجيا، علم الاجتماع والمجتمع في الجزائر، تنسيق عبد القادر لقجع، دار القصب للنشر، الجزائر، 2004.

